

الفصل الرابع

الأخطار الخارجية التي هددت سلطنة السلاجقة

(أ) الدولة القره ختايه

(ب) الدولة الخوارزمية

تنتمي القبائل القره خطائيه الى مجموعة من القبائل التركية المغولية^(١)، وكان أفرادها يسكنون أقصى بلاد الصين ويعتقون الوثنية ، وكانوا دائماً لا يستقرون في مكان ، الى أن استقر بهم المطاف في شمال شرقي إيران أثناء عهد السلاجقة .

وقد تركزت القبائل القره خطائيه وثبتت أقدامها في هذه المنطقة وأسسوا دولتهم المعروفة باسم القره خطائيه سنة ١١٢٤/٥١٨ م .
وقد اتخذوا مدينة بلاساغون^(٢) عاصمة لهم ، وكان زمام الأمور في يد ملك يطلق عليه اسم كورخان^(٣) .

(١) دونالد لير : إيران ماضيها وحاضرها ، ترجمة عبد النعيم محمد حسنين ، الطبعة الثانية ، دار الكتاب المصري ، دار الكتاب اللبناني ، القاهرة ، بيروت ، ١٩٨٥/٥١٤٠٥ م ، ص ٦١ .

ورد عند ذبيح الله صفا بلفظ : (تركان الخطا) خاصة الفرع البذي ينتمي الى جنس (التونكوزي) حيث كان يسيطر على المناطق الشمالية من الصين باسم (الخطا) وقد تمكن من طرد طوائف (القرقيز) من مكائهم وانتقالهم الى سواحل مجرى نهر يتي سىء ، ثم قوى نفوذهم وقاموا بادخال طوائف (أويغور) - التي كانت مقيمة في التركستان الصينية ، وتدين بالمذهب ماني - تحت سلطتهم .
انظر تاريخ أدبيات در إيران ، جلد دوم ، ازميانه قرن بنجم تا آغاز قرن هفتم هجرى ، جاب سوم ، تهران ١٣٣٩ هـ ، ج ٢ ، ص ٩١،٩٠ .

(٢) بلاساغون : وتلفظ بلاساغن وأشار البعض أن موقعها قرب كاشغر في ماوراء نهر سيحون ، على حدود الصين ، ولم يرد شيء غير ذلك .
انظر كى لسترنج : بلدان الخلافة ، ص ٥٣٠ .

(٣) كورخان : ورد عند ابن الأثير بلفظ كوخان يقال أنه كان جميلاً حسن المنظر يلبس الحرير الصيني ، له شخصية عظيمة على أصحابه ، ولم يول أميراً على أقطاع بل كان يعطيهم من عنده خوفاً من ظلمهم ، ولا يقدم أميراً على أكثر من مائة فارس حتى لا يتمرد عليه ، وكان ينهى أصحابه عن الظلم وعن شراب السكر ويعاقب عليه . توفي في رجب سنة ١١٤٢/٥٣٧ م . انظر الكامل ، ج ٩ ، ص ٤ .
أما عند الراوندى فقد ورد بلفظ الكافر الخطا ، انظر راحة الصدور ، ص ٢٦١ .
أما عند خواندمير بلفظ كورخان . انظر حبيب السير ، ج ٢ ، ص ٩٨ .
أما عند البندارى بلفظ الكافر الخطائى . انظر تاريخ مختصر دولة آل سلجوق ، ص ١٧٩ .

لم تجد القبائل القره خطائيه مانعا أو رادعا من توسعاتهم ، حيث زادت قوتهم ونفوذهم واستطاعوا التوغل والتقدم غربا ، فبسطوا نفوذهم على المناطق المجاورة لهم ، فأخضعوا القبائل التركية المعروفة باسم القيرقيز^(١) وطوائف أو يغور .

وقد اشتهر اسم القبائل القره خطائيه في تاريخ ايران في القرن السادس الهجرى ، حيث في عام ١١٢٥/٥٥١٩م قامت طائفة منهم يطلق عليها (تونكوز) بالضغط على بعض طوائف الخطا مما جعلهم يتركون ممتلكاتهم ، ثم واصلوا الضغط على ناحية الغرب حتى استولوا على كاشغر وختن ، وقد اشتهروا في التاريخ الاسلامى باسم القره خطائيين^(٢).

وكانت بلاد تركستان^(٣) وغيرها من بلاد ماوراء النهر خاضعة لنفوذ الملوك الخانية الأتراك^(٤) وهم مسلمون وأول من اعتنق منهم الاسلام هو جددهم الأكبر شبق قراخقان ولما مات تولى مكانه ابنه موسى^(٥) ، وظل الملك ينتقل بين أولاده حتى وصل الى أرسلان خان بن محمد بن سليمان بن

(١) عن القيرقيز واو يغور ، انظر ماورد عنهم في الحاشية رقم (١) في الصفحة السابقة.
(٢) الذهبي : كتاب دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ٥٥ - عبد النعم محمد حسنين : دولة السلاجقة ، ص ٩٨، ٩٩ - حسن أحمد محمود ، وآخر : العالم الاسلامى في العصر العباسى ، ص ٦١١، ٦١٢ - أحمد كمال الدين حلمى : السلاجقة في التاريخ والحضارة ، ص ١٠٦، ١٠٧ .

(٣) تركستان : وتشمل بلاد كاشغر وبلاساغون وختن وطراز وغيرها مما جاورها من بلاد النهر .

انظر ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٢ - أحمد كمال ندين حلمى : السلاجقة في التاريخ والحضارة ، ص ١٠٧ .

(٤) الخانية الأتراك : وهم من نسل أفراسياب التركي ، الا أنهم مختلفون ، وكان سبب اسلام جده شبق قراخقان أنه رأى في منامه رجلا يبول من السماء فقال له بالتركية سامعناه أسلم تسلم الدنيا والآخرة ، فأسلم في منامه ، فلما أصبح أعلن اسلامه .

انظر ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٢ .

(٥) موسى بن شبق قراخان : لم أقف على ترجمة له .

داود بن بقراخان بن ابراهيم ، وهو الذي خرج عليه ملك القره خطائيه قدر خان وانتزع الملك منه . وقد طلب أرسلان خان النجدة والعون والمساعدة من السلطان سنجر ، فكان ذلك البداية الفعلية لتدخل السلاجقة تدخلا فعليا ضد القره خطائيين ، فتصدى السلطان سنجر لقدر خان وتمكن من قتله في عام ١١٠٠/٥٤٩٤م وأعاد الملك الى أرسلان خان (١).

وفي سنة ١١٠٩/٥٥٠٣م ظهر قوم من الكفار نزلوا الى جيحون فعاثوا فيها فسادا وتخريبا ، ولما علم بذلك السلطان سنجر أرسل جيشا عظيما لحربهم فكسرهم وانتصر عليهم وقتل منهم خلقا كثيرا (٢).

وفي سنة ١١٣٠/٥٥٢٤م استنجد أرسلان خان بالسلطان سنجر - حيث كانت تربط بينهما علاقة مصاهرة - لينصره مرة أخرى على قبائل القارغليه فتحرك السلطان سنجر على رأس جيش فوصل الى سمرقند لمناصرة أرسلان خان وهزم القارغليه .

ثم وصل الخبر الى السلطان سنجر فيما بعد بأن أرسلان خان قد تآمر على قتله ، وأنه أرسل جماعة من الخيالة للقيام بذلك على الرغم مما قدمه له من عون ومساعدات للتغلب على أعدائه ، وقد نجح السلطان سنجر في القبض عليهم فاعترفوا له بالحقيقة فما كان من السلطان سنجر الا أن زحف بقواته وحاصر سمرقند وأخذ أرسلان خان أسيرا وأرسله الى بلخ حيث كانت وفاته هناك ، ثم عين السلطان سنجر مكان قلع طمغان الذي استمر فترة قصيرة الى أن مات ، ثم ولى مكانه محمود بن أرسلان خان وكان ذلك في عام ١١٣٢/٥٥٢٦م (٣). وقد أشرت عن ذلك فيما سبق .

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٢ - العيني : عقد الجمان ، ج ١٢ ، ورقة ٤٥ -

أحمد كمال الدين حلمي : السلاجقة في التاريخ والحضارة ، ص ١٠٧، ١٠٨ .

(٢) القلاسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٨ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٣ - العيني : عقد الجمان ، ج ١٢ ،

وفي سنة ٥٣١هـ/١١٣٧م بدأت القبائل القره خطائيه تحركها نحو بلاد ماوراء النهر وساروا اليها وتصدى لهم محمود خان بن أرسلان خان والى سمرقند فأوقعوا به الهزيمة قرب خجند^(١) في رمضان من نفس السنة ، فعاثوا في البلاد سلبا ونهباً وتدميراً وفساداً وظلماً وأصيب أهالي البلاد بالذعر والخوف الشديد فاستنجدوا بالسلطان سنجر^(٢).

وبعد الهزيمة التي لحقت بمحمود بن أرسلان خان أرسل يستنجد بالسلطان سنجر ويطلب منه نصرة المسلمين من أعداء الاسلام فجمع العسكر وانضم اليه أبو الفضل صاحب سجستان والغوري^(٣) صاحب غزنة وغيرهم

= وهناك رواية ثانية عند ابن الأثير قيل ان سنجر غدر به واستضعفه فملك البلاد منه ، وأشاع عنه ذلك ليبرر موقفه واعتقد أن هذه الرواية غير واقعية والذي يجعلنا نقول ذلك هو موقف سنجر تجاه أرسلان خان حيث نراه يعفو عنه وينصره أكثر من مرة وخاصة عندما قتل سنجر قدر خان سنة ٤٩٤هـ/١١٠٠م وأعاد أرسلان خان الى ملكه .

(١) خجندة : هي مدينة تقع في إقليم فرغانة على ضفة نهر سيحون ، وطولها أكثر من عرضها ، بها قلعة ومعظم أهلها يملكون سفن من أجل العبور بها في نهر سيحون يقال انها مدينة نزهة .

انظر كى لسترنج : بلدان الخلافة ، ص ٥٢٢ .

(٢) ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٦٦ - عبد النعيم محمد حسنين : دولة السلاجقة ، ص ٩٩ - أحمد كمال الدين حلمي : السلاجقة في التاريخ والحضارة ، ص ١٠٧ - فاسيلي فلاديميروفتش بارتولد : تركستان من الفتح العربي الى الغزو المغولي ، ص ٤٧٢ .

(٣) الغوري : هو علاء الدين حسين بن عز الدين حسين ، من أهم سلاطين الدولة الغورية ، حيث بلغت أوج العظمة في عهده ، واتخذ فيروز كوه عاصمة له ، وقد انتصر على بهرامشاه الغزنوي سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م ، ودخل غزنة وأهلك أهلها ، وأشعل النار فيها سبعة أيام بلياليها ، وقد لقب بجهانسوز أي (حارق الدنيا) يقال انه كان عادلا في رعيته أحسن الملوك سيرة ، توفي في ربيع الآخر سنة ٥٥٦هـ/١١٦٠م بعد أن غادر غزنة .

انظر ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٧٤ - نظامي عروضي سمرقندي : جهار مقاله ص ٩٥،٩٤ - حمد الله القزويني : تاريخ كزيده ، ج ١ ، ص ٤٠٨ - خواندمير :

- حبيب السير ، ج ٢ ، ص ١٥٤ .

وساروا في جيش كبير وعبروا النهر في ذي الحجة سنة ٥٣٥/١١٤١م . وشك اليه محمود خان بن أرسلان خان من عصيان الأتراك القارغليه فقصدهم السلطان سنجر ، ولجأوا الى كورخان طالبين منه أن يشفع لهم عند السلطان سنجر ، فأرسل الى السلطان طالبا الشفاعة للقارغليه والصفح عنهم ، فلم يستجب السلطان سنجر له ، وكتب اليه يدعوهُ الى الاسلام ويتوعده ويتهدهه وان لم يجب دعوته فسوف يقاتله ، واستعد كورخان للحرب ولقاء السلطان سنجر وانضم اليه جنود من الترك والصين والخطا استعدادا للحرب^(١).

ويذكر بعض المؤرخين^(٢) رواية أخرى عن سبب القتال بين كورخان والسلطان سنجر ، وهي أن السلطان سنجر خرج لقتال خوارزم شاه أتمز بن محمد وهزمه ومن ثم ولي خوارزم شاه هاربا ، غير أن ابنه أسر ثم قتل بناء على طلب السلطان سنجر ، وكان ذلك سببا في أن يرأسل خوارزم شاه الخطا يطمعهم في البلاد ويهون عليهم أمرها ويحثهم على قصد بلاد السلطان سنجر ، فساروا في حشد كبير ، وكذلك سار اليهم السلطان سنجر . وقد ورد عند الراوندى^(٣) سبب آخر هو أن عددا من جنود السلطان سنجر وظلمهم لأهالي ولاية ماوراء النهر وقسوتهم عليهم جعل قوادهم يرسلون سرا الى كورخان يستدعونه لتنصيبه على مملكتهم وتخليصهم من ظلم جنود سنجر فأجابهم ، والتقى الجيشان في معركة عنيفة عند قطوان^(٤) بالقرب من

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٤٠٣ - ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ، ص ٣٩٧ - العيني : عقد الجمان ، ج ١٢ ، ورقة ٤٥ .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٢ - أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٦، ١٥ - الحسيني : زبدة التواريخ ، ص ١٨٤ - محمود فهمى المهندس : البحر الزاخر ، ج ٢ ، ص ٤٨ .

(٣) انظر راحة الصدور ، ص ٢٦١ .

(٤) تذكر معظم المصادر أن السلطان سنجر توجه للقتال في سنة ٥٣٥/١١٤٠م وان موقعة قطوان كانت سنة ٥٣٦/١١٤١م ، ماعدا عند البندارى في كتابه تاريخ آل سلجوق ص ٢٥٤ فقد ذكر أن الموقعة كانت في سنة ٥٣٢/١١٣٧م .

وقطوان : قرية على بعد خمسة فراسخ من سمرقند . انظر ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ، ص ٣٧٥ .

سمرقند فطاف بهم كورخان حتى جعلهم يلجؤون الى وادى درغم (١) وذلك يوم الثلاثاء الخامس من شهر صفر سنة ١١٤٢/٥٥٣٦م (٢).

وكان على ميمنة السلطان سنجر الأمير قماج وعلى ميسرته صاحب سجستان أبو الفضل ، ودار القتال بين الطرفين وانتهت المعركة بهزيمة (٣) المسلمين جيش السلطان سنجر - حيث قتل وجرح منهم أعداد كبيرة تقدر بحوالى عشرة آلاف جندى ، وسار السلطان سنجر منهزما الى ترمذ ومنها الى بلخ ، وأسرت ترکان خاتون زوجة السلطان سنجر والأمير قماج وصاحب سجستان وآخرون وبذلك استقرت دولة الخطأ والترك الكفار فى بلاد ماوراء النهر (٤). فولى كورخان (ابن أخى أتمز) على بخارى حاكما من قبله (٥) ، مما يؤكد لنا مدى التحالف الذى يربط خوارزم شاه أتمز مع الخطأ ضد السلطان سنجر .

(١) لم يرد ذكر وادى درغم فى المصادر التى بين أيدينا ماعدا عند ابن الأثير فى كتابه الكامل ، ج ٩ ، ص ٤ . وهى من أعمال سمرقند . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٥١ .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٩ ، ص ٤٣ - الحسينى : زبدة التواريخ ، ص ١٨٦ - النظامى العروضى : جهاز مقالة ، ص ١٠٧ .

(٣) ذكر حمد الله القزوينى أن سبب هزيمة سنجر ترجع الى عصيان جنوده عليه ، مما تسبب عنه هزيمته ، وخروج بلاد ماوراء النهر من تحت سيطرته . انظر تاريخ كزیده ، ج ١ ، ص ٤٥٩ .

أما الجوزجاني ذكر أن سبب الهزيمة راجع الى طول مدة الرفاهية التى تمتع بها الجيش ، وتعود على حياة التنعيم مما جعلته يفقد الشيء الكثير من الروح القتالية انظر طبقات ناصرى ، تعليق عبد الحى حبيبي ، الطبعة الثانية ، كابل ، ١٣٤٢/١٣٤٢ ، ج ١ ، ص ٢٦١ .

وتركان خاتون : هى ابنة محمد خان بن أرسلان خان (صاحب ماوراء النهر) . انظر الراوندى : راحة الصدور ، ص ٢٦٤ .

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٩ ، ص ٤٣ - الحسينى : زبدة التواريخ ، ص ١٨٦ .

(٥) النظامى عروضى : جهاز مقالة ، ص ١٠٨ . أما عن (ابن أخى أتمز) ستورد ترجمته فى هذا الفصل .

وقد ذكر البعض^(١) أن السلطان سنجر صار يهاب الدخول معهم في حرب ، وورد أنه صالحهم وأعطى لهم مراعى التركستان وبلاساغون في مقابل رد زوجته واطلاق سراحها ، غير أن الأبيات التي أنشدها الشاعر الأنورى في ديوانه تؤكد أنه استرد منهم ماأخذوه منه بالقوة . وكانت نتيجة هذ المعركة قاسية جدا على السلطان سنجر حيث أنه لم يهزم من ذى قبل ، واضطر أن يفتدى زوجته بمئمة ألف دينار ، وكذلك الأمير قهاج بمائة ألف دينار ، أما أبو الفضل صاحب سجستان فقد أطلق كورخان سراحه . بعد أن علم استيلاء أولاده على بلاده^(٢) .

وبعد هزيمة السلطان سنجر أرسل الى ابن أخيه السلطان مسعود يأمره بالتصرف فى الرى وأن يكون مقيما فيها بجنوده ، ربما دعت الحاجة الى استدعائه . وعندما وصل الخبر الى عباس^(٣) صاحب الرى سار الى بغداد حيث قام بخدمة السلطان مسعود لكسب رضاه . ومن ثم توجه السلطان مسعود الى الرى امثالاً لأمر عمه سنجر . وقد استغل خوارزم شاه هزيمة السلطان سنجر وقصد خراسان فأعمل السلب والنهب فى أموال السلطان سنجر وقتل الأهالى الذين امتنعوا عن تسليم المدن له مثل مرو ونيسابور

(١) حمد الله القزوينى : تاريخ كزيده ، ص ٤٥٩ - الجوزجاني : طبقات ناصرى ، ج ١ ص ٢٦٢ - الانورى : ديوان الانورى ، نشر سعيد نفيسى ، طبع طهران ، ١٣٣٧ هـ ، ص ٦٤ ، ٦٥ .

(٢) البندارى : تاريخ مختصر دولة آل سلجوق ، ص ٢٥٤ - الحسينى : زبدة التواريخ ، ص ١٨٦ .

(٣) عباس : هو غلام من غلمان جوهر المغربى صاحب الرى ، وقد ولاه لمملوكه عباس وكان قتل جرهر بيد الباطنية عام ٥٣٤هـ / ١١٤٠م سيطر عباس على البلد وقوى نفوذه وقام بأخذ الثأر لمولاه حيث فتك بالباطنية وقتل منهم مايقارب مائة ألف ويقال أنه بنى من رؤوسهم منارة وأذن عليها المؤذن . انظر الحسينى : زبدة التواريخ ، ص ٢١٨ . ذكر ابن الأثير أنه من غلمان السلطان محمود ويتصف بحسن السيرة والعدل فى رعيته ، وأنه حاصر قلعة الموت ، ودخل الى قرية من قراهم فأشعل فيها النار وأحرق من فيها . قتل فى ذى القعدة سنة ٥٤١هـ / ١١٤٧م بالجانب الغربى من بغداد فأرسلت ابنته فحملته ودفنته بالرى . انظر ابن الأثير ، ج ٩ ، ص ١٥

وغيرهما^(١). ولما يمثله السلطان سنجر من قوة اسلامية عظيمة في بلاد ماوراء النهر آنذاك فقد كانت هزيمته ضربة عنيفة لقوة الاسلام^(٢).

وفي سنة ١١٤٣/٨٥٣٧م مات كورخان ملك الخطأ والترك الكفار والذي ألحق الهزيمة بالمسلمين ، وملكته بعده ابنته ولما ماتت تولت الملك زوجة كورخان ، وأصبح ماوراء النهر بيد الخطأ الى أن غلبهم وانتصر عليهم علاء الدين محمد بن خوارزم شاه صاحب خوارزم سنة ٨٦١٢/١٢١٨م^(٣).

وقد عرف عن ملوك القره خطائيه باعطاء الأمان والحفاظ على الأسر التي حكمت قبلهم ، حيث ان بعد استيلائهم على بلاد ماوراء النهر لم يقضوا على أسرة ملوك الترك المسلمين المعروفة بالافراسيائية أو الخانية وغيرها بل جعلهم يستعمرون في عروشهم واكتفوا بأخذ الخراج منهم ونصب شحنة من قبلهم في بلاطهم^(٤).

وقد ورد عند البعض^(٥) أن سلاطين القره خطائين - رغم مااشتهروا به من قوة أثناء قتالهم مع السلطان سنجر ، ورغم أنهم غير مسلمين ولم يدخلوا في الاسلام ، الا أنهم اتصفوا في معظم الأحيان ببعض صفات الاسلام ألا وهي صفة حسن السيرة والعدل ، وكانوا يحثون ولاتهم منذ أن حكموا بلاد ماوراء النهر على احترام الدين الاسلامي .

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٢ - ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ١٥

محمود فهمي المهندس : البحر الزاخر ، ج ٢ ، ص ٤٨ .

(٢) توماس لرنولد : الدعوة الاسلامية ، ترجمة حسن ابراهيم حسن وآخرون ، مكتبة النهضة ، القاهرة ، ج ٣ ، ص ١٨٨ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٤ - ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ، ص ٣٩٧ ، ج ٥ ، ص ٦٦ . أما عند البنداري ورد أنه لم يبق من طائفة الخطائية أثر بعد سنة ٨٦٠٠ . انظر تاريخ آل دولة سلجوق ، ص ٢٥٤ .

(٤) نظامي عروضي : جهاز مقاله ، ص ١٠٨ .

(٥) نفس المصدر السابق ، ص ٣٦ .

ولقد وردت عدة روايات بهذا الشأن نذكر منها أن كورخان الخطائي بعد انتصاره على السلطان سنجر في معركة قطوان ولى أمتكين^(١) ابن أخى اتسز خوارزمشاه على بخارى ، فظلم أهلها ، فأرسلوا الى كورخان يشتكون عليه من ظلمه فكتب اليه خطابا بالفارسية على طريقة المسلمين ، يهدده ويتوعده ويزجره . فبدأ بعبارة بسم الله الرحمن الرحيم ، وأنهاه بلفظة والسلام ، وقد وضع له أن بعد المسافة لايبعده عن سخطه ورضاه . الى أن قال وأن عليه أن يفعل ماأمر به محمد صلى الله عليه وسلم .

هذا ولم تكن الظروف المحيطة بالسلاجقة وقت وقوع موقعة قطوان في صالحهم ، لأن السلطان سنجر سلطان السلاجقة أصابه الوهن والضعف ، حيث تضاءلت سيطرته في بعض الأقاليم المجاورة نتيجة لما مر به من كثرة الحروب التي خاضها من أجل المحافظة على حدود دولته وعلى هيبة السلاجقة وملكهم ، وبالرغم من أن السلطان سنجر قد وفق في معظم الحروب التي خاضها حيث كان النصر حليفه ، الا أنها كانت سببا في انهك قوته .

وتعتبر موقعة قطوان بين الأتراك الخطائيين وبين السلطان سنجر والتي انتهت بهزيمة سنجر وجيشه وفراره الى ترمذ ومنها الى بلخ ، ضربة قوية وقاسية للدولة السلجوقية فهي تعتبر حدا فاصلا بين عهدين من عهد السلطان سنجر ، عهد القوة والنفوذ والانتصارات المتوالية ، وعهد الضعف والانهيال والهزيمة .

(١) هو : أمتكين ابن الأمير ييبابى (وبلفظ أيضا اليتكين) ذكر نظامى عروضى أن ضبط هذه الكلمة غير مؤكد والمحقق أن كورخان قد عهد بحكومة بخارى الى رجل اسمه شبيه بهذه الكلمة سنة ١١٤١/٥٣٦م بعد انتصاره في قطوان وقد ذكر هذا في "مختصر تاريخ بخارى" لمحمد بن زفر بن عمر الذى ألفه سنة ١١٧٨/٥٧٤م أى بعد واقعة قطوان بشمان وثلاثين سنة .
انظر جهار مقاله (حواشى المقالة الأولى) ، ص ١٠٨، ١٠٩ .

وقد نتج عن هذه الهزيمة القاسية المريرة التي انهزم فيها السلطان سنجر في معركة قطوان - أول هزيمة له - آثار سيئة للغاية حيث اعتبرت بداية النهاية لحكم سنجر . وقد ذكر البعض^(١) نتائج معركة قطوان على النحو التالي :

أولا : أخضع إقليم ماوراء النهر تحت الحكم الأجنبي حيث أصبح تحت حكام وثنيين ، لأول مرة في تاريخ المسلمين ولمدة تزيد على الستين عاما عاش المسلمون خلالها بحكم عادل ، عكس ما يظن القارىء بأن خضوع المسلمين لحكم القراخطائين البوذيين كانت آثاره سيئة عليهم ، فهذه حقيقة واقعية لكل قوم يقعون تحت حكم غزاه ، مما جعل المسلمين يعمهم الرخاء والأمن والسلام ، فانتعشت حياتهم الزراعية والتجارية .

ثانيا : أصبح إقليم خوارزم تحت حكم القراخطائين ، مما ترتب عليه أن دخل حاكمها خوارزم شاه اتسز ، تحت حكم القراخطائين ، بل وأصبح يدفع الى خزينة كورخان مبالغ سنوية تقدر بحوالى ثلاثين ألف دينار ذهباً .

ثالثا : بداية نهاية سنجر . فقد تركت هذه المعركة آثار سيئة على السلطان سنجر ونائبه محمود خان ، حيث لم يستطع بعدها أن يعيد أراضي ماوراء النهر الى حكمه ، خلال الفترة الباقية من حياته . أما بالنسبة لمحمود خان ، فقد فقدتها أيضا ، وظل أفراد أسرته يحكمون ذلك الاقليم ، تحت نفوذ وحكم القراخطائين .

رابعا : أثر المعركة على السلطان سنجر ، من المعروف أنه لم يهزم من قبل طوال فترة حكمه . أما في قطوان فقد اختلف الأمر ، حيث كانت أول هزيمة تلحق بجيشه بالكامل ، مما جعل بعضهم يلوذ بالفرار ، وهذا يؤكد ما أشار اليه بعض المؤرخين من أن للسكان المسلمين القاطنين فيما وراء النهر دور كبير في النيل من حكم أمراءه الجائر ، وذلك بالتعاون مع القراخطائين

(١) سعيد بن حذيفة الغامدى : معركة قطوان أسبابها ونتائجها ، مجلة العصور ،

ضده . كما أن هزيمته في قطوان أعطت فرصة للغزاة الأتراك في خراسان أن قاموا بالثورة عليه ، وكانت نهاية حكمه .

خامسا : نوعية حكم الناس المسلمين فيما وراء النهر ، لقد أظهرت معركة قطوان بوضوح نوعية حكم السلطتين السلجوقية والقراخانية لاقليم ماوراء النهر ، حيث كان الأمر يترك غالبا للأمرء ، الذين كانوا يخفون الأمن ، فلم يأمن المواطنون على أنفسهم وأهليهم وممتلكاتهم ، من شر حكامهم . لذلك لانستغرب لرأى بعض المؤرخين من أن هناك فئات كثيرة من السكان راسلت القراخطائيين الوثنيين للتخلص من حكم السلطتين المذكورتين أعلاه .

سادسا : علاء الدين اتسز يهاجم ممتلكات السلاجقة ، بعد أن سمع بهزيمة السلطان سنجر في قطوان ، فقام بالتمرد عليه وغزو أراضى سيده . سابعا : توقف المد الاسلامى شرقا ، نلاحظ عندما استولى القراخطائيين اقليم التركستان ، وماوراء النهر ، وأخضعوا خوارزم لنفوذهم ، لذلك نجد أن الاسلام أخذ يتراجع الى الغرب ، فانحسر الى مادون نهر سيحون ، ثم جاءت معركة قطوان فدحضته الى مسافة أكبر ، فجعلت حده الفاصل ماء نهر جيحون ، وبذلك لم يكن هناك حاكم مسلم في تلك الديار يقوم بنشر الاسلام ، الى ماوراء اقليم التركستان الغربى ، وقد عاش المسلمون تحت حكم عادل طوال فترة حكم الكورخانيين الخطا ثم تعرضوا للاضطهاد والتعذيب على يد حكومة وثنية أعقبت حكومة الكورخانيين الخطا .

ويضاف الى النتائج السالفة الذكر التى أحدثتها معركة قطوان أن دولة السلاجقة فقدت السيطرة على أطرافها ، حيث كثرت الدول والامارات المستقلة حولها ، ومن أهم هذه الدول التى أحاطت بدولة السلاجقة ودخلت معها في حروب هى ا ولة الخوارزمية^(١) ، والدولة الخطائية ، والدولة

(١) الدولة الخوارزمية : انظر الرسالة .

الغورية (١).

كما تجرأ على السلطان سنجر حكام الدولة الخوارزمية وتمردوا عليه ،
وبدأ بذلك نجم السلاجقة يأفل تدريجياً حتى سقطوا على يد الدولة
الخوارزمية (٢).

(١) الدولة الغورية : تنتسب هذه الدولة الى "الضحاك" ، يحكى انه حكم ايران في
القديم أما جدهم "شنسب" فيزعم بعض المؤرخين أنه كان معاصراً لعلي بن أبي
طالب وأنه أسلم على يده وهم طائفتين : الأولى : ملوك الغور ، حكموا غور
وكانت عاصمتهم فيروز كوه ، الثانية : ملوك طخارستان ، شمال غور ،
وعاصمتهم باميان ، وقد حكمت هذه الأسرة نحو سبع وستين سنة (٥٤٣-١١١٢هـ /
١١٤٨-١٢١٥م) أي بعد أن انتصروا على الغزنويين الى أن قضى عليهم
الخوارزمشاهين .

انظر نظامى عروضى : جهار مقالة ، حواشى المقدمة ، ص ٩٤ .
وقد حدث صدام بين الدولة الغورية بقيادة السلطان سنجر وذلك عندما قام الأول بمحاصرة هراة سنة
١١٥٢/١١٥٧م ونهبها ثم سار الى بلخ واستولى عليها ، مما دفع السلطان سنجر أن
يجهز حملة لتأديبه ومنعه فسار بجيش كبير ، وتمكن من هزيمة علاء الدين وأسرته ،
ثم أطلق سراحه وأعادته الى بلاده .

انظر ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٩ ، ص ٣٣ - الجوزجاني : طبقات ناصرى
ص ٣٤٨، ٣٤٦ .

(٢) عبد النعيم محمد حسنين : دولة السلاجقة ، ص ١١٠ - حسن أحمد محمود ، وآخر :
العالم الاسلامى فى العصر العباسى ، ص ٦١٢، ٦١٣ - أحمد كمال الدين حلمى :
السلاجقة فى التاريخ والحضارة ، ص ٥٩، ٥٨ .

(ب) الدولة الخوارزمية

obeyikandi.com

اتفق الجغرافيون المسلمون في تحديد اقليم خوارزم - حيث سبق ذكره - واختلف الجغرافيون في تبعية اقليم خوارزم فمنهم من يضمه الى ماوراء النهر والآخر يضمه الى خراسان وآخرون ذكروا أنه منفصل عن خراسان وماوراء النهر (١).

وينتسب ملوك الدولة الخوارزمية (٢) الى عبد تركى يدعى أنوشتكين (٣) كان مملوكا لرجل من غرجستان (٤)، وقد اشتراه أحد الملوك السلاجقة حيث عمل ساقيا للسلطان ملكشاه، ونظرا لما ظهر من أنوشتكين من كفاءة وحسن أداء العمل فقد فتح أمامه أبواب الترقى والوصول الى

- (١) نافع توفيق العبود : الدولة الخوارزمية ، ص ١٧ .
- (٢) نشأت هذه الدولة منذ القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) وفي عصر محمود الغزنوى عين حاكما عليها أحد حجاجه ويدعى التوتناش لذلك فقد كانت خوارزم ولاية من ولايات الغزنويين .
- (٣) انظر أحمد كمال الدين حلمى : السلاجقة فى التاريخ والحضارة ، ص ١١٣ . أنوشتكين : هو أنوشتكين غرجه ، كان غلاما تركيا مملوكا لبلكاتكين غلام ملكشاه فى غرجستان . وقد تقلب فى عدة مناصب فى عهد السلطان ملكشاه ، منها تقلده طشت دار فى البلاط ثم أسندت اليه وظيفة الشحنة فى خوارزم باعتبارها تابعة لوظيفة الطشت دار . وقد توفى سنة ١٠٩٦/٥٤٩٠م وخلف تسعة أولاد وأحفاد حكموا بعده مدة ١٣٨ سنة .
- انظر خواندمير : حبيب السير ، ج ٢ ، ص ١٦٩ - ذبيح الله صفا : تاريخ أدبيات در ايران ج ٢ ، ص ٢٩ . وقد ورد اسمه عند ابن الأثير بلفظ أنوشتكين غرشفه ، كما أنه مملوك أمير من السلجوقية اسمه بلكياك . الكامل ، ج ٨ ، ص ١٨٤ . أما عند زاهباور بلفظ أنوشتكين غرشان . معجم الأسرات الحاكمة ، ص ٣١٧ .
- (٤) غرجستان : بلاد تقع فى اقليم خراسان ، قال بعضهم تكتب غالبا : غرستان أو غرستان وكثيرا ماكان يحدث لبس فى اسمها بغورستان أى بلد الغور تقع فى شرقها وأكبر مدنها هى أبشين وشورمين ، ولا يعرف موضعهما وللأسف فان صفة هذه البلاد الجبلية الواسعة لم يصلنا شىء عنها ويقال انه كان يخرج من حدودها نهر مرغاب وفيها شعاب عامرة ذات عيون وبساتين وأنهار ، وقد اشتهرت بمعادن الفضة والذهب .
- انظر كى لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٤٥٨، ٤٥٩ .

مناصب مرموقة حيث شغل وظيفة الطشت دار أى أنه كان يقوم بغسل أدوات الوضوء واحة الحمام والاباريق والطاسات والكراسى وغير ذلك من الأصناف التى فى بيت السلطان^(١).

وقد جرت العادة أن يكافئ السلاجقة السقاة والحجاب والحرس الخاص بهم باقطاعات من الأراضى ، وعين أنوشتكين واليا على خوارزم من قبل السلطان السلجوقى ملكشاه فى سنة ١٠٧٦/٥٤٧٠م وظل حاكما على خوارزم حتى توفى فى عام ١٠٩٦/٥٤٩٠م^(٢).

وفى نفس السنة عين السلطان بركيارق بن ملكشاه الأمير داز حبشى بن التوتناق^(٣) على خراسان ليصلح من شأنها وتهدئة ماوقع فيها من الفتن بين الأتراك حيث قتل فيها أكنجى^(٤) نائب خوارزم .

(١) النويرى : نهاية الارب فى فنون الأدب ، دار الكتب المصرية ، ج ٨ ، ورقة ٢٢٥ .

(٢) عبد النعيم محمد حسنين : سلاجقة إيران والعراق ، ص ١١٥ - حسن أحمد محمود ، وآخر : العالم الاسلامى فى العصر العباسى ، ص ٦١٣ - ادوارد جرانفيل براون : تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى الى السعدى ، ص ٣٨٣، ٣٨٤ .

(٣) داز حبشى بن التوتناق : طلب من السلطان بركيارق أن يساعده فى القتال ضد الملك سنجر حيث يريد الاستيلاء على بلاده ، فاستجاب بركيارق لطلبه فسار اليه فى ألف فارس واشتبك الأخوان فى معركة انتهت بهزيمة بركيارق وهروب داز حبشى الى بعض القرى ، فاستطاع بعض التركمان القبض عليه وقد بذل مائة ألف دينار مقابل اطلاق سراحه ، فلم يقبلوا بذلك فحمل الى سنجر ، وقام بقتله الأمير برغش سنة ١٠٩٩/٥٤٩٣م .

انظر ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٨ ، ص ١٩٤ - الحسينى : زبدة التواريخ ، ص ١٧٧-١٧٨ .

(٤) اكنجى : اسمه الأمير اكنجى بن قجفار ولاء السلطان بركيارق ولاية خوارزم ولقبه ، خوارزمشاه ، جهز جيشه من عشرة آلاف فارس ليلحق بالسلطان الى العراق فتقدم جيشه بثلاثمائة فارس الى مرو ، وتشاغل بالشرب ، فاستغل الأمير قودن ويارقشاش ذلك واتفقا على قتله فجمعا خمسمائة فارس وهاجموه فجأة وقتلوه سنة ١٠٩٦/٥٤٩٠م ، واستوليا على خوارزم وأظهرا أن السلطان قد ولاهما عليها .

انظر ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٨ ، ص ١٨٣ .

ولما وصل داز الحبشى الى خراسان عين قطب الدين محمد بن أنوشتكين واليا على خوارزم ولقبه بخوارزم شاه ، وقد وافق السلطان بركيارق على تعيين قطب الدين محمد بن أنوشتكين على خوارزم . وأخذ قطب الدين يبذل جهودا كبيرة فى ادارة شؤون اقليم خوارزم ، وقرب اليه أهل العلم والدين والصلاح ، ومن ثم عظم شأنه ، ونال منزلة عظيمة عند سلاطين السلاجقة^(١).

وعندما أصبح السلطان سنجر سلطانا للسلاجقة أقره على ولاية خوارزم وأيده وعاونه وقربه اليه نظرا لكفاءته .

ومن الدلائل التى توضح معاونة السلطان سنجر لقطب الدين ضد منافسيه ومعارضيه ، أن بعض ملوك الأتراك جمعوا جموعا وقصدوا خوارزم حيث كان قطب الدين بعيدا عنها ، ولما علم بذلك توجه الى خوارزم وأرسل الى السلطان سنجر يطلب العون والمساندة ضد أعدائه ، فسار السلطان سنجر بجيشه اليه ، الا أن قطب الدين لم ينتظر مجيئه اليه وسار مسرعا الى خوارزم وماكاد يقترب منها حتى أسرع الأتراك بالفرار منها وظل مدينا بالولاء والتبعية والاخلاص للسلطان سنجر ، واستمر حكمه لخوارزم أكثر من ثلاثين عاما لم يخرج فيها عن طاعة السلطان سنجر ، وكان يسعى دائما ويعمل من أجل وحدة السلاجقة وتربطهم وتماسكهم الى أن توفى فى سنة ١١٢٦/٥٥٢١م^(٢).

وبعد وفاة قطب الدين ، أسند السلطان سنجر ولاية خوارزم الى ابنه علاء الدين أتمز وذلك عرفانا منه بوفاء والده له .

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٨ ، ص ١٨٤ -

Howorth, History of moghols (London, 1876) p.7 .

(٢) ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ١٩ - ابن الوردي : تمة المختصر فى أخبار البشر

ج ٢ ، ص ١٨ - فاسيلى فلاديميروفتش بارتولد : تركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، قسم التراث العربى بالمجلس الوطنى للثقافة والفنون والأدب ، الكويت ١٩٨١/٥١٤٠١ م ، ص ٤٧٣ .

وقد أبدى علاء الدين أتمسز كفاءة عالية في إدارة شؤون إقليم خوارزم واشتهر بالعلم واحسانه للرعية مما جعل الاقليم ينعم بالأمان والعدل ، وكانت الألفة والمحبة تربط بينه وبين السلطان سنجر ، وخاصة عندما تعرض سنجر لمؤامرة تستهدف قتله أثناء خروجه للصيد ، ولما وصل هذا الخبر الى علاء الدين أتمسز وعلم بما يدبر لسيده ، قام باحباط المؤامرة ، ونجاه من القتل ، وأدى ذلك الى ثقة السلطان سنجر فيه أكثر فقربه اليه ، فكان بصحبته في كثير من أسفاره وحروبه ، ونظرا لكفاءته واخلاصه أصبح من أبرز رجال السلطان سنجر (١).

وقد سار علاء الدين أتمسز مع السلطان سنجر الى بلاد ماوراء النهر سنة ١١٢٩م/٥٢٤م حيث سبق ذكره ، كما سار معه أيضا في حملته ضد فخر الدين بهرام شاه الغزنوي سنة ١١٣٤م/٥٢٩م (٢).

غير أن ما تحقق لعلاء الدين أتمسز من مكانة عند السلطان سنجر آثار غيرة وحسد الأمراء ، فبدأوا يكيّدون له ويدبرون له المكائد واستطاعوا أن يغيروا نظرة السلطان سنجر فيه . فلما شعر علاء الدين أتمسز بذلك خشى على نفسه فجهز نفسه وأخذ يعد العدة ليستقل بخوارزم ، وحينما اطمأن الى قوته واستقرار نفوذه وجد الوقت قد حان لأنه يستقل بدولته استقلالا تاما عن السلاجقة ، وبدأ في اظهار البغضاء والعداء والمخالفة للسلطان سنجر بقدر ما كان يظهر له من ولاء وطاعة .

وازداد تدهور العلاقات بينهما يوما بعد يوم الى أن أعلن علاء الدين أتمسز ثورته وعصيانه على السلطان سنجر سنة ١١٣٥م/٥٣٠م ، فهاجم أملاك السلاجقة التي تقع أسفل نهر جيحون وانتزعها من قبضتهم وضمها الى

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٨ ، ص ١٨٤ - خواندمير : حبيب السير ، ج ٢ ص ١٦٩ .

(٢) عبد النعم محمد حسنين : سلاجقة ايران والعراق ، ص ١١٦ - بارتولد : تركستان من الفتح العربي الى الغزو المغولي ، ص ٤٧٤ .

مناطق نفوذه ، وكان ذلك أول صدام عسكري بين السلاجقة والخوارزميين^(١).

ولم يقف السلطان سنجر مكتوف الأيدي أمام عصيان علاء الدين أتسز فجمع جيشه لتأديبه على ما بدر منه من عصيان ومخالفة وليتخلص منه كي لا يستفحل خطره ، فسار الى خوارزم في محرم سنة ١١٣٨/٨٥٣٣م وخرج علاء الدين أتسز لصد ومنع السلطان سنجر عن البلاد ، والتقى الفريقان بالقرب من هزاراسب^(٢) واشتبكا في معركة عنيفة انتصر فيها السلطان سنجر انتصارا كبيرا على خوارزم شاه علاء الدين أتسز ، وقتل عددا كبيرا من جنده ، غير أن علاء الدين أتسز نجح في أن يفر وينجو بنفسه من القتل . ويقال ان خسارة الخوارزميين في هذه المعركة تقدر بحوالي عشرة آلاف بين قتيل وجريح^(٣) وقد وقع ابن علاء الدين أتسز في الأسر ، وانتقم السلطان سنجر من أبيه بأن أمر بقتل ابنه وقطع جسده نصفين ، وحزن علاء الدين أتسز حزنا شديدا على قتل ابنه^(٤).

وبعد هذا النصر الكبير الذي حققه السلطان سنجر أسند حكم خوارزم الى ابن أخيه غياث الدين سليمان شاه بن محمد السلجوقي^(٥) وقرر

-
- (١) نافع توفيق العبود : الدولة الخوارزمية ، ص ٤٥، ٢٢ - أحمد كمال الدين حلمي : السلاجقة في التاريخ والحضارة ، ص ١١٥ .
- (٢) هزاراسب : معناه بالفارسية : ألف فارس : وهي قلعة حصينة ومدينة كثيرة الماء محيطة بها كالجزيرة ، وليس لها الا طريق واحد على ممر قد عمل من فواحي خوارزم بينهما ثلاثة أيام .
- انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٤٠٤ .
- (٣) خواندمير : حبيب السير ، ج ٢ ، ص ١٧٠ - ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٨ ص ٣٦٤ .
- (٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٨ ، ص ٣٦٤ - علاء الدين عطا ملك الجويني : تاريخ جانكشاي ، مطبعة بريل ، ليدن ١٩١٦ ، ج ٢ ، ص ٥ .
- (٥) غياث الدين سليمان شاه بن محمد : أقام عند عمه سنجر فترة من الزمن وقد جعله ولي عهده ، وخطب له على منابر خراسان ، فلما انهزم سنجر من الغز ، مضى سليمان شاه الى خوارزم شاه فزوجه ابنة أخيه أتميس ، ثم بلغه عنه =

له قواعد الملك فيها واستتبت الأمور في الاقليم ، ثم عاد الى مرو في جمادى الآخرة من هذه السنة .

وانتهز علاء الدين أتمز فرصة عودة السلطان سنجر الى مرو وعاد الى خوارزم معتمدا على معاونة الأهالي له وبغضهم لجنود السلاجقة ، وبوصوله الى خوارزم لم يجد سليمان شاه بدا من أن يغادر البلاد . الا أن علاء الدين أتمز شعر بالخوف من عودة السلطان سنجر لقتاله من جديد ، فطاول أن يسترضيه ويستعطفه ويتعهد له بالطاعة والخضوع لأمره وألا يعصيه مرة أخرى ، فرضى عنه السلطان سنجر وصالحه . وسيتضح فيما بعد أن هذه المصالحة التي سعى اليها علاء الدين أتمز انما لكي يتاح له الوقت لتنظيم جنده لاستعادة قوته (١).

= مما جعله بكرهه فأبعده ، ثم جاء الى أصفهان فمنعه شحنتها من الدخول ، فمضى الى قاشان فأرسل الى الخليفة المقتضى يأذن له بدخول بغداد وجاءت الموافقة بعد أن أرسل زوجته رهينة لذلك ، فحضر سليمان شاه الى دار الخليفة وأقام ببغداد الى محرم سنة ١١٥٦/١١٥٦م وحلف للخليفة على الموافقة ولزوم الطاعة ، وأن لا يتعرض الى العراق ، مما جعل الخليفة يخطب له ببغداد ولقبه بألقاب والده غياث الدنيا والدين وخلع عليه خلع السلطنة ، فلما سمع السلطان محمد بن محمود بذلك أرسل الى صاحب الموصل يفرجه بالمال الكثير اذا قبض على سليمان شاه ، وبالفعل قام بتجهيز جنوده وسار الى لقاء سليمان شاه ووقعت الحرب بينهم في جمادى الأولى من نفس السنة وانهزم سليمان شاه وأخذ أسيرا وحمل الى قلعة الموصل وحبس بها مكرما ، وفي سنة ١١٦٠/١١٥٥م ، توجه الى همذان من أجل أن يتولى السلطنة . وقتل السلطان سليمان شاه في ربيع الآخر سنة ١١٦١/١١٥٦م وسبب ذلك اغلال خلقه بشرب الخمر واستهزائه بالأمراء مما جعل كرد بازو وهو من مشايخ الخدم السلجوقية يخطط الى قتله بعد أن استهزأ به فعمل دعوة عظيمة حضرها السلطان سليمان والأمراء فلما سار السلطان سليمان الى داره قبض عليه وعلى وزيره ، فقتل وزيره وحبس سليمان شاه في قلعة فأرسل اليه من خنقه ، وقيل سقاه سما .

انظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٤٨، ٤٩، ٧٢ .

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٨ ، ص ٣٦٤ - ابن الوردي : تنمة المختصر في أخبار البشر ، ج ٢ ، ص ٦٧ .

وبعد أن نظم علاء الدين أتمسز جنده واستعاد قوته بدأ بمهاجمة ممتلكات السلاجقة من جديد فاستولى على بخارى^(١) سنة ١١٣٩/٥٣٤م وقتل حاكمها زنكي بن علي ، وزاد العداء بين الجانبين لاسيما بعد أن تحالف علاء الدين أتمسز مع قبائل الخطا التركية - كما مر بنا سابقا - التي استقرت فيما وراء النهر ، وحشهم على مهاجمة ممتلكات السلاجقة . وبالفعل بدأت هذه القبائل في شن هجماتها وغاراتها على البلاد الاسلامية فعاثوا في البلاد سلبا ونهباً وتدميراً ، مما دفع عمال تلك البلاد الى الشكوى للسلطان سنجر الذي لم يجد مفراً من أن يتحرك لقتالهم^(٢).

وفي سنة ١١٤١/٥٣٦م كانت هزيمة السلطان سنجر من القره خطائين في موقعة قطوان وفراره الى ترمذ ومنها الى بلخ .

وانتهز خوارزم شاه علاء الدين أتمسز هزيمة السلطان سنجر في موقعة قطوان وضعف قوته لتوسيع ممتلكاته فأغار على ممتلكات السلاجقة في خراسان وعات فيها تخريباً وفساداً ، وقصد سرخس^(٣) في ربيع الأول من نفس السنة ومنها الى مرو حيث دخلها عنوة وقتل ونهب فيها وجلس على عرش السلطان سنجر ، واستولى على خزائن السلطان سنجر ، وسار منها الى نيسابور واستولى أيضاً على أموال وممتلكات أصحاب السلطان سنجر وقطع خطبته وأمر أن تكون الخطبة باسمه ، واشتعلت نيران الفتنة وثار الناس وترتب على هذه الثورة ، أن أعيدت الخطبة باسم السلطان سنجر في المحرم

(١) بخارى : مدينة كبرى تقع في اقليم الصفد على نهر الصفد وقد اشتهرت بخصوبة تربتها .

انظر كى لسترنج : بلدان الخلافة ، ص ٥٠٣-٥٠٦ .

() نافع توفيق العبود : الدولة الخوارزمية ، ص ٢٤،٢٣ .

(٣) سرخس : مدينة تقع في اقليم خراسان على طريق من طوس الى مرو ، على ضفة نهر المشهد اليمنى ويقال له اليوم تجند ، وقد اشتهرت في القرن الرابع الهجرى ، بخصوبة التربة وكثرة المراعى ، وزراعة البطيخ والعنب .

انظر كى لسترنج : بلدان الخلافة ، ص ٤٣٧،٤٣٨ .

سنة ١١٤٣/٨٥٣٧ م ، كما أرسل علاء الدين أتمسز جيشا الى بيهق (١) ،
وارتكب رجاله أعمالا وحشية كبيرة فيها (٢).

ولم تدم سيطرة خوارزم شاه علاء الدين أتمسز على المناطق التي
أخضعها لنفوذه ، ولم يتمكن من ضم أى مدينة من مدن خراسان الى
ممتلكاته بسبب أن السلطان سنجر بعد أن انهزم من القره خطائين عاد الى
خراسان ، فقرر علاء الدين أتمسز العودة الى خوارزم تاركا ما استولى عليه
من بلاد خراسان (٣).

وهنا يتبين أن أعمال الخوارزميين في خراسان كانت أعمالا تخريبية
يقصد منها زعزعة دولة السلاجقة واخضاع الناس لهم .

غير أن علاء الدين أتمسز أصر على عصيان الطاعة للسلطان سنجر ،
منتهزا ضعف قوته بعد هزيمته في موقعة قطوان ، فقام بتأليب البلدان
الاسلامية الأخرى ضده ، وعندما وصل الخبر للسلطان سنجر أرسل لعلاء
الدين أتمسز يتوعده فرد عليه علاء الدين بأبيات من الشعر تؤكد اصراره
على العصيان فقال فيها : "إذا كان حصان الملك سريع العدو ، فان حصاني
أيضا - ليس أعرج فتعال هنا وأنا أذهب هناك ، فليس العالم ضيقا" (٤) مما
جعل السلطان سنجر يعتزم الانتقام من علاء الدين أتمسز لفعلته النكراء ،
واصراره على العصيان فجمع جنوده وقصد خوارزم في سنة ١١٤٤/٨٥٣٨ م .
ولما علم علاء الدين أتمسز بذلك عمل على تقوية جنده وحشد جيشه وأصلح

(١) بيهق : معناها بالفارسية الأحسن والأفضل وهي ناحية كبيرة واسعة كثيرة البلدان
والعمارة تشتمل على ثلثمائة وحدى وعشرين قرية ، تبعد عن نيسابور بحوالى
ستين فرسخا ، وكانت قصبته أولا خسروجرد ثم صارت سبزاور .

انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٥٣٧، ٥٣٨ .
(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٥٤٤ - العيني : عقد الجمان ، ج ١٢ ،
ورقة ٤٦ .

(٣) نافع توفيق : الدولة الخوارزمية ، ص ٢٥ .

(٤) العوفي : لباب الألباب ، ليدن ، ١٩٠٣ م ، ج ١ ، ص ٣٧ .

حصونه استعدادا للحرب مع السلطان سنجر .

ولما وصل سنجر الى خوارزم وجد علاء الدين أتمز قد تحصن بالمدينة ولم يخرج لقتاله لأنه على يقين بعدم مقدرته لقتال السلطان سنجر ، وكان القتال يجرى بينهما من وراء الأسوار ، وقد قسم السلطان سنجر السور على أمراءه لحصار علاء الدين أتمز واشتد الحصار واستمر لمدة عشرين يوما ، وقد حاول السلطان سنجر خلالها اقتاع بعض الخوارزميين الوقوف الى جانبه الا أنه لم يوفق في ذلك فهجم الأمير سنقر^(١) أحد أمراء السلطان سنجر على المدينة ، غير أن علاء الدين أتمز قوى عليه واستطاع اخراجه منها ، ولما أدرك السلطان سنجر قوة البلد وامتناعها عليه ، قرر عدم الرحيل عنها الا بعد أن يقطع فيها أمرا ، ووجد علاء الدين أتمز أنه محاصر حصارا محكما وشديدا وان قوة السلطان هي الأرجح والأكفأ ، فخشى على ضياع ملكه فأرسل الرسل الى السلطان سنجر يطلب الصلح والعفو عنه ، فوقع الصلح بينهما على أن يترك علاء الدين أتمز كل ما استولى عليه من البلاد والمدن الخراسانية أثناء انشغال السلطان سنجر بالحرب مع الخطا سنة ١١٤٢/٥٥٣٦ م ، وأن يرد جميع الأموال والجواهر التي استولى عليها من خزانة السلطان في مرو ، وأن يعود الى ماكان عليه من الخضوع والطاعة والولاء للسلطان

(١) سنقر : هو الأمير سنقر العزيزي ، من أمراء السلطان سنجر ، تولى ولاية زنجبار ، وقد انضم مع السلطان مسعود بن محمد ومع مجموعة من الأمراء في الحرب التي وقعت مع الأمير أتابك منكوبرس ، صاحب بلاد فارس ، فانهزم جيش منكوبوس وأسر منكوبوس ، ولما علم الأمير بوزابه ، وكان من أعظم أصحابه جهاز جيشه وأقسم أن لا يرجع حتى يثار لصديقه (منكوبرس) وبالفعل هجم على حريم السلطان مسعود ودارت الحرب بينهم فانهمز السلطان وقبض على اثنا عشر أميرا منهم الأمير سنقر فقام بوزابه بقتلهم جميعا ومن بينهم الأمير سنقر ، وقد جرت هذه المعركة في أواخر سنة ١١٣٧/٥٥٣١ م .

انظر البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١٧١ - الحسيني : زبدة التواريخ ، ص ٢١٣ - ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٨ ، ص ٣٩١ .

سنجر فأجابه السلطان الى ذلك واصطلح معه ثم عاد الى مرو (١).
ويقال ان رشيد الدين الوطواط نظم شعرا بهذه المناسبة أعلن فيه عن
قيام دولة علاء الدين أتسز وهذا مطلعها :
حين اعتلى الملك أتسز عرش المملكة
انتهت دولة سلجوق وآله (٢)

-
- (١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٧ - العيني : عقد الجمان ، ج ١٢ ،
ورقة ٤٦ - الحسيني : أخبار الدولة السلجوقية ، ص ٩٥ ، ٩٦ - رشيد الدين
الوطواط : مجموعة رسائل الوطواط ، مطبعة المعارف ، مصر ١٣١٥ هـ ، ج ١ ، ص ٩
(٢) النص الفارسي :
بلت ملك اتسز بتخت ملك برآمد

دولت سلجوق وآل ايسر آمد

انظر رشيد الدين الوطواط : حدائق السحر في دقائق الشعر ، ترجمة ابراهيم أمين
شواربي ، القاهرة ١٣٦٤/١٩٤٥ م ، ص ٨ - حمد المستوفي : تاريخ كزيده ، ج ١ ،
ص ٤٨٧ - ذبيح الله صفا : تاريخ أدبيات در ايران ، ج ٢ ، ص ٣٠ .

هزيمة السلطان سنجر فى الحرب الأخيرة التى وقعت بينه وبين علاء الدين أتمز ٥٥٤٢ ورسوخ أركان الدولة الخوارزمية :

لقد اشتبك السلطان سنجر مع علاء الدين أتمز عدة مرات حيث كانت كفة السلطان هى الراجحة دائما ، الا أن علاء الدين أتمز كان دائما ينجس على ملكه ومن ثم كان يقدم الاعتذار ويطلب الصفح والعفو عنه ويظهر الطاعة والولاء للسلطان سنجر فى كل مرة يتغلب عليه السلطان ، فيقبل السلطان منه الاعتذار ويصفح عنه ويسامحه عما بدر منه ، وبصرف النظر عما يقال فى تفسير تكرار صفح السلطان عنه ، سواء كان ذلك عن طيبة نفس منه أو عن أسلوب الخداع والنفاق الذى كان يتبعه علاء الدين أتمز معه ، فمما لا شك فيه أن السلطان كان ينجس توسيع رقعة الحرب بينه وبين علاء الدين أتمز فى الوقت الذى كانت تتهدد فيه الأخطار دولته خارجيا من قبل القره خطائين ، وداخليا من قبل الاسماعيلية .

فبعد الحرب الأخيرة التى دارت بينهما فى عام ٥٥٣٨/١١٤٤م ، وانتهت بالصلح بينهما ، هدأت الأحوال بينهما فترة من الزمن ، استطاع علاء الدين أتمز خلالها تقوية جيشه ، ثم لم يلبث أن نقض الصلح الذى أبرم بينه وبين السلطان ، فما كان من السلطان سنجر الا أن أرسل الى علاء الدين أتمز شخصا يدعى أديب صابر^(١) ، وحمله رسالة يدعو فيه الى الولاء والطاعة وينصحه بعدم سفك الدماء أو ازهاق الأرواح ، واعتقد علاء الدين أتمز أن مهمة أديب صابر مهمة تجسسية ، ومن ثم احتجزه عنده ومنعه من العودة الى السلطان سنجر .

كما دبر علاء الدين أتمز مقتل السلطان سنجر ، فاستأجر اثنين من الاسماعيلية لتنفيذ هذه المهمة ، وعلم أديب صابر بهذه المهمة فكتب رسالة الى السلطان سنجر تتضمن وصفا دقيقا للمهمة وكذلك للفدائين المكلفين

(١) أديب صابر : انظر ترجمته فى الفصل السادس .

بتنفيذ المهمة ، وبعث بهذه الرسالة بصحبة امرأة عجوز أخفتها وسارت بها الى مرو حتى سلمتها الى السلطان سنجر .

ولما علم السلطان بفحوى الرسالة قبض على الرجلين الفندائيين وقام بقتلهما ، وما أن علم علاء الدين أتسز بما حدث وتأكد أن وراء ذلك أديب صابر أمر بتقييده واغراقه في نهر جيحون وكان ذلك حسب ما يذكره المؤرخون قبيل عام ١١٤٧/١١٤٢م ، وغضب السلطان سنجر غضبا شديدا لقتل رسوله ، ورأى أن الحل الوحيد لما ارتكبه علاء الدين أتسز هو قتاله فجهز جيشا ، وسار الى خوارزم في نفس السنة ، ولم يخرج علاء الدين أتسز الى لقاء السلطان سنجر بل تحصن في هزاراسب ، فحاصره السلطان حصارا شديدا استمر شهرين ، وكان برفقة السلطان سنجر شاعره الانورى ، فطلب منه أن يقول أبياتا من الشعر في هذا الموقف ، فنظم قائلا :

"أيها المليك ان ملك العالم رهن لشارتك

والعالم ملك يمينك بفضل اقبال حظك ودولتك

فجد اليوم بحملة واحدة قصبه هزاراسب وقلعتا

وغدا تكون لك خوارزم ومائة شبيهة بهزاراسب

وقد كتبت هذه الأبيات على سهم وقذفت الى داخل القلعة . وكان

برفقة علاء الدين أتسز داخل القلعة شاعره رشيد الدين الوطواط فأجابه

بأبيات من الشعر ساخرا من السلطان سنجر قائلا :

"لو قدر وكان خصمك هو البطل رستم

فانه لن يستطيع أخذ حمار واحد من هزاراسب أو من جيادك الألف"

الا أن السلطان سنجر تمكن من الاستيلاء عليها بعدما تراجع علاء

الدين أتسز أمامه وكعادته دائما بادر الى طلب الصفح والعتو من السلطان

سنجر ، فوافق على الصفح عنه ، ولكنه اشترط عليه أن يحضر الى شاطيء

جيحون ليقدم خضوعه وولاءه له (١).

وفي سنة ١١٤٩/٥٥٤٣م خرج علاء الدين أتمسز عن حدود اللياقة والأدب عند مقابلته للسلطان ، حيث أحنى رأسه دون أن يترجل عن جواده واكتفى باغتناء رأسه ، ثم رجع السلطان سنجر متأثراً بسوء تصرف علاء الدين أتمسز ، غير أنه لم يجد ضرورة من قتاله مرة أخرى ، فقرر العودة الى مرو بعدما تيقن من عدم اخلاص علاء الدين أتمسز في الصلح معه (٢).
وقد سأم السلطان سنجر من تعاقب حروبه المتتالية على خوارزم واضطر الى الاعتراف بعلاء الدين أتمسز حاكماً مستقلاً على خوارزم وبذلك انفصل عن السلاجقة ، وهنا يجعلنا نتساءل لماذا كان يعامل السلطان سنجر علاء الدين أتمسز بهذه المعاملة الطيبة رغم خيائته له عدة مرات ، في الوقت الذي كانت تسمح الفرصة للسلطان للقضاء عليه ، فكان يصفح ويعفو عنه على الدوام .

(١) الوطواط : حقائق السحر ، ص ٨، ٩ - حمد الله القزويني : تاريخ كزيده ، ج ١ ، ص ٤٨٩، ٤٨٨ .

الوطواط : نفس المصدر والصفحة - حمد القزويني : نفس المصدر والصفحة .
النص الفارسي (الأنوري) :
اي شاه همه ملك زمين حسب تراست

وز دولت واقبال جهان كسب تراست

امروز بيك حملة هزاراسف لكبير

فردا خوارزم شاه وصد هزاراسب تراست

انظر الجويني : تاريخ جهانكشاي ، ج ٢ ، ص ٨ - حمد الله القزويني : تاريخ كزيده ، ج ١ ، ص ٤٨٩ .

النص الفارسي (الوطواط) :

كرث شمنت اي شاه شودرستم كردد

بك خر زهزاراسب تونتواند برد

انظر حمد الله القزويني : تاريخ كزيده ، ج ١ ، ص ٤٨٩ .

(٢) عبد النعم محمد حسين : سلاجقة ايران والعراق ، ص ١١٨ - أحمد كمال الدين حلمي : السلاجقة في التاريخ والحضارة ، ص ١١٧، ١١٨ - بارتولد : تركستان من الفتح العربي الى الغزو المغولي ، ص ٤٧٨ .

وهكذا رسخت أركان الدولة الخوارزمية التي بدأت في الظهور بخطى سريعة وفي المقابل أخذت قوة سنجر تنهار ومن ثم أخذت الدولة السلجوقية في الضعف والانهييار ، وبانتهاء الصراع بين السلطان سنجر وعلاء الدين أتسز ، اتجه علاء الدين أتسز نحو التوسع فقام بعدة حملات نتج عنها ضم بعض البقاع لنفوذه (١).

كما أتاح الفرصة لدول أخرى مثل الدولة الغورية أن تطمع في ممتلكات سنجر ومهاجمته .

(١) عبد التميم محمد حسنين : سلاجقة ايران والعراق ، ص ١١٨ - نافع توفيق العبود : الدولة الخوارزمية ، ص ٢٨ - حسن أحمد محمود ، وآخر : العالم الاسلامى في العصر العباسى ، ص ٦١٤، ٦١٦ - أحمد كمال الدين حلمى : السلاجقة في التاريخ والحضارة ، ص ١١٨ .